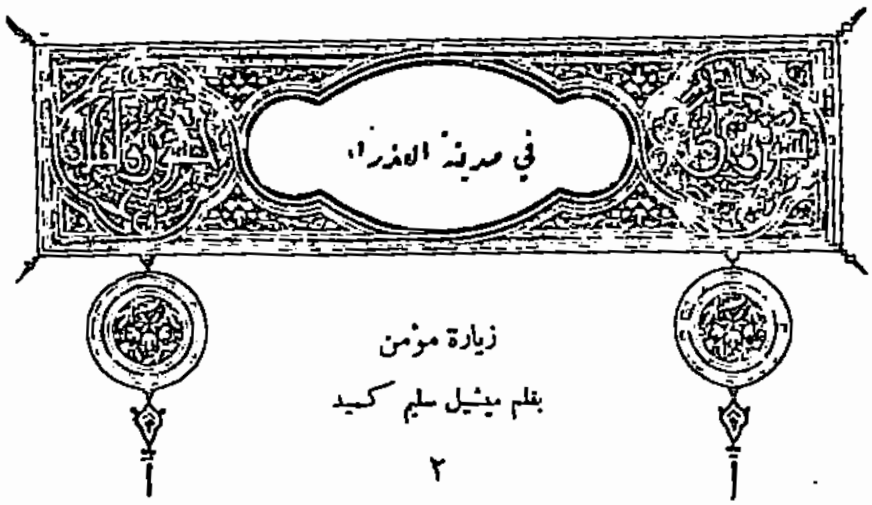

زيارة مؤمن

بقلم ميشيل سليم كسيد

٢

وصف الكاتدرائية

« اذهبي وخبّري الكهنة ، ان يشيدوا كنيسة
هنا ، ويقيموا التطوافات . »
كنيسة العذراء لبرناديت — الظهورة الرابعة عشرة

انتهيت من درب الآلام ؛ فلمَ لا اجضر القداس ؟ ارتقيت درجات الكنيسة ، فوجدتها مزدحمة بالمصلين حتى الباب الاكبر . فاخترقتهم وانتقيت مكاناً قصيا وراء احد الاعمدة الضخمة ، لا اضايق احداً ، ولا يضايقني احد . واستكنت اسمع القداس . وكانت الكنيسة هادئة مع ازدحام الداخلين والخارجين .

ولعلك تميل الى سماع وصف الكاتدرائية الشهيرة ، فهي بالحقيقة ليست كنيسة واحدة ، بل واحدة فوق اخرى ، يتوسطها ناووس .

فالكنيسة العليا ، وهي الكبرى ، مشيدة على الطراز القوطي ، طراز القرن الثالث عشر ، مقامة على صخرة مرتفعة على جانبها الايمن مغارة الظهورات . وما تكاد تلجها حتى تأخذك تلك المنحنيات الرشيقة والتقوسات النحيفة ، والدعائم الهائلة الجميلة . وتجد الاعلام والرايات المهداة من الفرق والجيوش والجمعيات وغيرها الى الكنيسة هنا وهناك مدلاة من السقف كالسجوف البديعة ؛ ثم الاوسمة والنياشين والرتب العسكرية والبراءات ، تكسو الجدران ، وتزين المسالك . واذا ادرت بصرك نحو زجاج النوافذ ، وجدت تاريخ السيدة العذراء لها المجد مرسوماً على الواحها . وذلك ببسط قضايا الجبل

بلا دنس ، منذ الخليقة الى قراز بيوس التاسع السعيد الذكر . ثم هناك خمسة معابد على كل جانب منها . وفي كل منها مذبح كبير . وكل معبد يضم عادة في نافذته ايقونة عليا كبيرة ، واخرى تحتها صغيرة ، وتمثال قديس على المذبح ، وبعض صفحات رمزية تذورية . وكل ايقونة تمثل حادثة من حوادث الكنيسة الكبرى . وعلى الاغلب تمثل الايقونة العليا برنادت وحوادث لورد العجائبية . . . وفي مقدمة الكنيسة عدة مذابح اخرى تتألف كالسابقة . وجميع هذه لا تهدأ بها القداسات ايام الزيارات لامتلاء لورد بالكهنة الوافدين من جميع الانحاء .

ونصل الى الناووس (Crypte) ، الذي يمتد تحت الكنيسة العليا مسافة طويلة ، وعند ما تدخله تجد في مدخله ايقونة كبيرة تمثل السيد الذكر البابا القديس بيوس العاشر ، يواجهه تمثال هامة الرسل واول رئيس للكنيسة الرومانية المقدسة ، القديس بطرس . وهو نسخة لنصبه في الفاتيكان ، الذي صنعه لاون الاول ، بعد تقهقر اتيلا . . . ومن العادة ان تقبل قدم التمثال اليمنى . ولكني لم اشمها ، بل وقفت وصليت وتمتمت صلوة قصيرة . . .

بعد هذا تسير في دهليز طويل ، سعته ثلاثة امتار ، وفي منتهاه الناووس وفيه خمسة مذابح كبيرة ، على كل منها نصب قديس ، وعلى كل زجاج نوافذه رسوم حوادث ملونة كما في الكنيسة العليا . . . والناووس ساكن هادئ لا يدخله إلّا طلّاب التأمل والاعتراف ، أو لاجل مباركة اشياء تذكارية ، او من يريد الرياضة الروحية . واهم ما فيه تمثال البتول الطاهرة على المذبح الرئيسي ، وقد قالت الطوباوية برنادت انه اكثر النصب شبهاً بالعذراء في ظهوراتها .

واذا انتهيت من الناووس ، وانحدرت بايّ السلمين الجانبيين الى الكنيسة السفلى ، المعروفة بكنيسة الوردية ، تراها على شكل مستدير بديع ، وبها خمسة عشر مذبحاً عظيماً من الرخام والنحاس . وتضم من المعابد والايقونات ، وزجاج النوافذ المصوّر وسواها ، ما يماثل ما في الكنيسة العليا .

مغارة الحوارق والمياه المقدسة

« اذهبي اشربي من العين واغتسلي »
الظهورة الثامنة

اما المغارة التي ظهرت فيها العذراء المجيدة للفتاة الراعية برنادت سوبيروس ،

ثماني عشرة مرة ، فهي نقرة في صخرة عظيمة تعلوهـا الكنيسة الكبرى ، سوداء الحجارة من دخان الشموع المشعلة على مدى هذه الاعوام الطويلة . وقد اقيم في المكان الذي اشارت اليه الطوباوية برنادت كموقع ظهورات العذراء ، نصب بالحجم الطبيعي ، يعلو ثلاثة امتار عن الارض . وقد اكتظ سقف الثغرة وخارجها بالعكاكيز والركائز ، وادوات اخرى كثيرة ، مما تركه المرضى الذين نالوا نعمة الشفاء فيها ... وعلى المدخل حاجز ذو فتحتين للدخول وللخروج .

وقد دخلت عصر ذاك اليوم — قبيل الزياح القرباني — مع بعض الزوار . وهم يسيرون في صف ، واحداً بعد آخر ، يراقب هذا النظام بعض الكهنة خيفة الازدحام والتشويش . لاسيما وذلك المكان يعج بالالوف ... ولجت المدخل وبيدي شمعة اشعلتها في محملة الشمع . فالفيت صخرة فاحمة اللون دكناء ، يلثمها الزوار في مرورهم ، تقع تحت التمثال . فدنوت في رهبة وسكون . وادنيت شفتي فلثمتها .

وانتهيت الى الباب التالي ، فاذا بي امام اجران المياه تعلوهـا لوالب تحمل اليها ماء الصخرة العجائبي في قساطل ... وكم كان خجلي عظيماً ، وانا دون طاس للشرب . فما العمل ؟ احترت في كيف عساي اتدارى موقفي الحرج . ووددت ان افلت من هذه الورطة . ولكن الحبل المشير للطريق يحول دون الهرب فكأني في حبس .. ولم يتركني تدفق الزوار ان اتريث . فاندفعت بضغطهم الى الامام نحو الاجران . فسرت مضطرباً على مضض . ودنوت من لولب تناولت منه بكفي شرقة ورشفتها على عجلة ، وهممت نحو المنفذ !

لورد في العالم

مما يجدر التنويه به ، ويشير الى مكانة لورد خارج العالم الكاثوليكي ، ان زرافات عديدة تهبطها من اتباع وارباب المذاهب المنشقة . ولقد شهدت حادثة من ذلك النفوذ البليغ . فقد استوقل القطار الذي قدمت به ، في محطة بايون (Bayonne) ، اسقف وسبعة كهنة ، ومـا ينيف عن العشرين من الالمان البروتستان . وكان من حظ حافلتنا ان تؤهل باكثرهم . وكان بعضهم على مقربة مني ، وانا في مسالك العربة ، اسرح النظر وامتعه من النافذة بمناظر

فرنسة البهجة الساحرة.

كثيراً ما يتعرف الانسان في تجواله الى رفقاء السفر ، وكثيراً ما يتصعد الحديث معهم ، أو قد تجر اليه الظروف او حادثة ما . ولست ادري كيف اتصل بيننا وصل الكلام . فوجدتني اخوض معهم في غمار حديث طريف — والحديث ذو شجون كما يقولون — فطفنا نقتحم مبحثاً الى آخر ونطرق موضوعاً ننقله الى سواه ، قتلاً للوقت وطلباً للتسلية . فخضنا في ذكر المانية كمطلب سياحة وتجوال ، فزينوها لي . وامتدّ بنا الكلام الى تفقد البلدان الاخرى كمتزه وملهى ، فالى الحرب العظمى ، ونصيب الدول فيها وسواها . واتفق ان وقف القطار في العراء قبل لورد لامر ما ، ونحن على رمية منها . فسألني احدهم اين اطلب . فبثثته بغيتي . وما لبثت بدوري ، بهذه المناسبة ، ان سألته اين يقصدون . فاظهرني انهم ايضاً على قصدي . لان هذه الايام هي اوان الزيارة الوطنية (الافرنسية) وبها تزهر لورد وتغيس في حلل زاهية نضرة من المراسيم والاحتفالات الدينية البهيّة الآخذة بمجامع القلوب . فتعجبت عمداً — كيما استجرّ مقاله — والمحت الى بروتستانيتهم . فاجابني ان ليس بهذا عجب . وليس المذهب « بالشيء المهم في عرفه » ، ولا غرابة ، فان هذه هي المرة السابعة التي ينزل بها البلدة المقدسة . وسواء عنده الاديان اجمعها ... ثم ذهب يبسط لي باسهاب روعة الحفلات الدينية ونشوة جلالها التي تعتري مشاهديها . وابلغ في سرد ماهية ما يكتنف المرء من الرهبة والتأثر اوان منح بركة المرضى والمنكوبين الشفاء . واقاض انه ، وهو غير متشيع لدين ما دون آخر ، « تؤثر فيه مشاهد لورد الى درجة عظيمة ، فلا تعتريه في سواها ، بل يودّ ان لا تفلت منه فرصة قط لحضور احتفالاتها وزياراتها الاهلية ، واشار الى انه يكاد يصدق جميع ما تهتزّ به لورد حيناً بعد آخر ، من العجائب وحوادث الشفاء النادرة الخ » ... الى ان وقف القطار في البلدة المنشودة فختم كلامه بان دعاني الى نزل هيتز الشهير ، حيث هم عازمون « كي نكون معاً » . فاعتذرت له بوعدي احد الكهنة بوافاته الى نزل آخر . وتأسفت لعدم مرافقتهم . ونزلنا وتفارقنا ، وكان آخر العهد بهم .

ولست في حاجة الى ان اشير الى ان النزل المذكور يزدحم عادة باتباع الفرق البروتستانية من الشعوب السكسونية ، وهذا ما علمته اثناء مقامي بلورد ، مما يدلك على سعة نفوذ لورد بين الشعوب قاطبة ، ومبلغ صيتها . وقد شهدت عدداً عديداً من قساوسة البروتستان اثناء التطواف القرباني يلتقطون مراسيمه وفرائضه بالآلات الفوتغرافية والسينائية .

السينما الربنية

وفي لورد شهدت لاول مرة شريطاً سينمائياً دينياً ، كان عظيم التأثير عليّ . فقد عرضت على اللوحة الفضية استشهادات بعض القديسين الاتقياء ، وهم يبذلون انفسهم بلا ادنى مقاومة في سبيل الدين المقدس . فناجيت نفسي : متى ارى امثال هذه الافلام ، تتبوأ مكانها على مراسح السينما المعهودة .

وبهذه المناسبة ، اذكر ان في باريس جمعيات تقوية تألفت خصيصاً من كبار الافرنسيين العلمانيين والدينيين ، لمراقبة الافلام العامة ، ونشر الملاحظات عنها في جرائد ومجلات خاصة . وبين يدي الآن مجلة « الصداقة الافرنسية الكاثوليكية »[1] وبها تقرير عن المؤتمر الثاني للجمعية السينمائية الكاثوليكية به بحث كافٍ عن الوسائل اللازمة لنشر الثقافة والآداب الكاثوليكية بواسطة السينما . ثم مراقبة الافلام الاجرامية . وتحذير الجمهور من شرها اللعين . وانا لنأمل ان يمتد أثرها ، ويقوى حولها ، فتتعزز بذلك آدابنا ، وتسمو اخلاقنا . وان ذا لقريب !

اللبناني الوحيد

مما اذكره بحرقة ومرارة ، ولن اغفله قط ، هو كم كانت صدمتي عظيمة حين تحققت اني كنت السوري اللبناني الوحيد ، وسط تلك الخلائق الكثيرة . فقد استوضحت جميع من اتصلت بهم من كهنة ودنيويين وتصفحت جميع الوجوه ، ونقبت جميع الجماعات ، عساي اقف على وطنيّ لي . فكنت كصاحب بغية تائه ، اقتحم تارة هؤلاء ، واخترق اولئك اخرى . وكانت النتيجة واحدة .

(١) *Les Amitiés Catholiques Françaises - 15 décembre, 1929. p. 17.*

ولست انسى خجلي ، وقد وقع في روعي ما صغر نفسي في عيني ، حين علمت ، وحيدًا ، لا عشير لي من ابناء وطني يقدم معي للبتول الطاهرة شعائر الزيارة ، ويقوم ببعض فرائضها . وكيف لا اتأثر ، وقد بلغ جمع الزوّار — حسبما قرأته في جريدة « منارة لورد » — تيفًا وتسعين الفًا ، ايام الزيارة ، ليس بينهم من ابناء فينيقية سواي ! اجل كيف لا تنسحق نفسي والحقيقة المؤلمة تجابهني بما فيها من قسوة ! لم يدفع عني لطف وايناس ارباب الفندق ، وجميع من تعرفت بهم ، غائلة الكآبة في ذكري تقصير ابناء بلادي نحو والدة الاله ، الاله الذي بذل نفسه ضحية زكية لفدائنا !

فكرت في هذا الامر . وتساءلت لماذا لا تذهب وفود زوّار من بلادنا الى لورد ، ولماذا لا نقتدي بفرنسة . فيذهب جمع من سورية ولبنان ، كما تذهب الجموع من اقاليم فرنسة ومقاطعاتها المختلفة ؟ احياء في الدين ، أم ضعفاً في الايمان ؟

ثم لمَ لا نكمل امرًا ، ان لم يكن فريضةً محتمة ، فادنى ما فيه انه مظهر ديني جليل ، فنقوم به اسوة بسوانا من الامم والشعوب . اخال فيه هضيمة ومهانة ، وها ان اعظم الدول واحقر الشعوب ، تأتيه جزلة مختارة ؟ وكفى بفرنسة قدوة — وهي التي يعدها بعض صغار العقول موئل الالحاد وكنف اللادينية — أجل ففيها لنا مثال ناطق ، ومن شهد موسم الزيارة الاهلية الافرنسية ، رابحر تلك الربوات الوافدة على المدينة المقدسة من شتى الاقاليم ، اقرّ صاغرًا مفحماً بما يسود الشعب الافرنسي النبيل من العواطف الدينية ، واقتنع ايضاً أن الشعب ايضاً من اشد شعوب الارض تمسكاً بالدين وتعلقاً باهداب تعاليم الكنيسة المقدسة . ولقد شهدت بعينيّ ، في لورد وليزيو ، ما شعرت به في باريس من هذه المظاهر ، في احتشاد واكتظاظ الكنائس العديدة ، في ساعة الظهر ، بل في اية برهة من النهار ، بجماهير المتعبدين ، مما أيد لي تعلق الافرنسيين واعتصامهم بروح الدين . وعليه ما احرانا ان نكون نحن ، ابناء منبت الانبياء والرسل ، في الاقتداء بفرنسة ، وما احرانا ، ونحن تحت اشرافها وانتدابها ، ان نعد انفسنا بمثابة اقليم من اقاليمها ، فنوفد ايام الزيارة

الافرنسية جمعاً يقدم لسيدة لورد الطاهرة ، فرائض الزيارة ! ؟

وقد علمت اتفاقاً هناك ، من صاحب النزل ، ان المسيو عقل — ان لم تخدعني ذاكرتي — امّ لورد ، مستصحباً عائلته الكريمة ، فاقام بها ، العام المنصرم ، شهراً وبعض الشهر . فحبذا لو سعى سيادته ، بما له من نفوذ ومكانة ، في تأليف جماعات من شرقنا العزيز لزيارة سيدة لورد !.

المبارحة

ولجّ القطار مزمجراً بين الهضاب والاودية ، قاصداً بين عاصمة بريطانية . ولمعت كنيسة العذراء ، سيدة لورد ، من خلال فجوات الجبال ، وبرق صليبها الذهبي اللامع على محياها الزاهر ، فسرت في المسافرين رهبة وروعة . واستولت عليهم رعشة هزت ايديهم هزاً ، فارتفعت بسكون راسمة بخشوع اشارة الصليب المقدس ... واشرأبت اعناق ، وحملقت اعين من خلال نوافذ حافلات القطار ، ومرت حبّات المسابح بين الاصابع ، فتمتمت جميع الشفاه كلمات خافتة مبهمة ، وامتلأت العيون ببعض دمعات حزن وفرح . وارسلت تنهدات حرّى صعدت جميعها الى العلى كفشوز حمد وشكر وتقوى !

ونظر الحفل المحتشد في مسالك الحوافل الى بعضهم بعضاً ، كأن ثمة لسان حالهم يناجي البارئ تعالى : هل من عودة لهذه الربوع المقدسة ؟

وكان آخر مشهد من لورد ، لحظة ما هي بالثانية ؛ مشهد حشد الزوار في باحة الكنيسة ، سجداً خشوعاً ، امام ابن الله المتأنس ، المطاف به في الزياح القرباني المؤثر .

وامعن القطار ، فاستترت لآخر مرة عن الانظار كنيسة لورد وصليبها الذهبي ، وراء الشامخات الشاهقات ؛ والجمع لم يبرح المنافذ محملقاً متمتماً زافراً .. وفي الافكار جائشات ، وفي الصدور اهتزازات ، وفي الافئدة آمال وتأملات ! ! ...

يا سيدة لورد صلي لاجلنا !